

Vol 04 المجلد 04 Num 01 العدد 01	حفريات المعرفة Hafriyat Al- marefa	Issn : 2830-912X جوان 2024
--	---	--

مرايا السرد وتحولات المجتمع: مقاربة نقدية في الرواية العربية المعاصرة

Mirrors of Narrative and Social Transformations:
A Critical Approach in the Contemporary Arabic Novel

أ. لعوج حسينة

A. Laouedj Hassina

المركز الجامعي مرسلّي عبد اهلل-تبيازة

University Center Morsli Abdellah - Tipaza

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة الرواية العربية بوصفها مرآة للتحوّلات الاجتماعية الكبرى التي عرفها العالم العربي، وذلك عبر تحليل المضامين والبنى الخطائية التي تشبّك مع قضايا الواقع مثل السلطة، الهوية، الطبقة، الدين. الرواية، بما هي خطاب جمالي ومعرفي، تتيح فهماً معمقاً لهذه التحوّلات، وتنتج في الوقت نفسه خطاباً نقدياً مناهضاً للبنى التقليدية. وسنحاول في هذه الورقة تفكيك أبرز الاستراتيجيات السردية التي اعتمدها الروائي العربي لرصد هذه التحوّلات، من خلال التمثيل السردى لألزمات وتوترات الواقع العربي.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربية-التحوالت الاجتماعية-السلطة-الهوية-الطبقة-الدين-الستراتيجيات السردية-الزلمات-الواقع العربي.

Abstract:

This study seeks to approach the Arabic novel as a mirror of the major social transformations that the Arab world has witnessed, through an analysis of the themes and discursive structures that engage with issues of reality such as power, identity, class, and religion. The novel, as both an aesthetic and epistemic discourse, offers a profound understanding of these transformations while simultaneously producing a critical discourse that challenges traditional structures. In this paper, we will attempt to deconstruct the main narrative strategies employed by the Arab novelist to capture these transformations, through the narrative representation of crises and the tensions of Arab reality.

Keywords: Arabic novel-social transformations-power-identity-class religion-narrative strategies-crises-Arab reality.

مقدمة:

تُعد الرواية العربية من أكثر الأجناس الأدبية حساسية تجاه التحوالت التي تطال البنية الاجتماعية، ال باعتبارها تسجيلاً وثائقياً لها، بل أنها تفكك وتعيد تشكيل هذه التحوالت ضمن بنية فنية وسردية معقدة. فنذ نشأتها في العصر الحديث، ارتبطت الرواية العربية بالواقع المعيش،

وصاغت من خلال تقنياتها المختلفة خطاباً يلتقط هشاشة المجتمعات العربية وتوترتها، ويمنحها إمكان التعبير الرمزي والجمالي. إنها ليست فقط مرآة للواقع، وإنما خطاب نقدي يُعيد مساءلة البديهيّات الاجتماعية والتاريخية والثقافية.

إن التحولات الاجتماعية التي شهدتها المجتمعات العربية، من الاستعمار إلى الاستقلال، ومن الحركات القومية إلى صعود الإسلام السياسي، كلها وجدت صدى عميقاً في النص الروائي. لهذا، فإن النظر إلى الرواية بوصفها وثيقة فنية - اجتماعية، يسمح لنا بالكشف عن تمفصّلات الواقع في تمثاله الجمالية، وعن الدور الذي يلعبه الروائي في تفكيك البنى السلطوية والاجتماعية والثقافية. انطلاقاً مما سبق نريد الإجابة في ورقتنا البحثية هاته عن الإشكاليات التالية: كيف استطاعت الرواية العربية أن تحوّل التحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى إلى مشروع جمالي يتجاوز التسجيل إلى التفكيك وإعادة البناء؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار الرواية العربية وثيقة ثقافية - اجتماعية تكشف عن هشاشة البنى المجتمعية وتناقضاتها، دون أن تفقد بعدها الفني والجمالي؟ ما هي الآليات السردية والجمالية التي اعتمدها الروائي العربي لتمثيل المنفى، القمع، الغضب النسوي، وأصوات المهمشين في سياق التحولات العربية؟ وهل يُمكن للرواية، عبر هذه التقنيات، أن تشكل فضاءً بديلاً للهوية والذاكرة في مواجهة السلطة وانحسار المجتمع؟

أوال: المنفى الروحي والبحث عن الذات:

تعدّ الرواية العربية مرآة دقيقة النهاية ارت البنى الاجتماعية التقليدية، ال سيما بعد صدمة الحداثة، والحروب، والنقالبات السياسية. مثل هذه الأحداث تكشف للقارئ كيف أن الرواية ليست مجرد حكايات فردية، بل مرآة النكسار جماعي أصاب المجتمعات العربية بعد الحروب والنزاعات. وهو ما يجعل من السرد أداة لتشريح البنية الاجتماعية عبر الحكاية الخاصة.

بعيداً عن التناول المباشر لهوية الجماعة، تقترح بعض الروايات العربية تمثيلاً ذاتياً لإنسان مأزوم، يعيش اغترابه داخل وطنه وخارجته. في "بريد الليل" لهدى بركات، نقرأ حيوات ممزقة،

شخصيات تكتب من العدم، وتعيش في العدم، في رمزية قوية لانهايار الوجودي الذي تعانيه الذوات العربية بعد النزاعات والحروب.

(1 رسالة السجين السابق: يكتب السجين رسالة إلى حبيبته السابقة بعد أن خرج من المعتقل قائلاً: "خرجتُ من الزن ازنه ولم أخرج منها. بقيتُ حيطانها في داخلي، بقي صدى الخطوات والسياط. حتى حبك صار بعيداً، ... "1. هنا تبرز الرمزية في تمثيل الاعتقال كسجن داخلي أبدي، يظلّ مألزماً للذات حتى بعد تحرر الجسد. فالحب الذي كان يرمز إلى خالص محتمل تحوّل إلى استحالة. وبهذا يصبح السجن رمزاً لانهايار الهوية الفردية تحت وطأة السلطة القمعية. إنّ هدى بركات في بريد الليل "تحوّل التجربة السياسية إلى جرح وجودي مفتوح، حيث الذات ال تعود قادرة على ترميم نفسها"2. يصف كيف صار غريباً عن نفسه وعن الناس، وأن الحب الذي كان يمكن أن ينقذه قد صار مستحيلاً. هذه الرسالة تمثل انهيار الذات بعد تجربة القمع السياسي؛ فالاعتقال دمر هويته وجعله يعيش في عدم داخلي، حيث لم يعد قادراً على استعادة ذاته أو حبه الضائع.

(2 رسالة المرأة العالقة في المنفى: امرأة تكتب عن عزلتها في بلد الغربة، بال جذور وال سند، تعيش حالة انتظار مستحيلة. تقول إنها لم تعد تعرف لمن تكتب أو لمن تنتمي. هذه الشخصية تجسد المنفى كعدم؛ حيث الغربة ليست مجرد مكان، بل فقدان للمعنى والهوية، ما يجعل وجودها هشاً وممزقاً بين مكانين ال تنتمي إليهما: "لم أعد أعرف إن كنت أنتمي إلى هنا أو هناك. الغربة صارت جلدي. ال أحد ينتظرنني، وال أحد أكتب إليه"3. هذه الرسالة تحوّل المنفى من مجرد مكان إلى حالة وجودية. الغربة رمز للعدم، حيث يغيب الوطن والبيت والسرة، لتصبح الهوية ممزقة بال سند. ف"المنفى في السرد العربي الحديث لم يعد جغرافياً، بل حالة انكسار في المعنى، حيث يتحوّل الفرد إلى كائن بال جذور"4. وهذا يتجلى بوضوح في هذه الشخصية التي تذوب في فضاء الانتظار المستحيل.

(3 رسالة البن إلى أمه: ابن يكتب ألمه معترفاً بذنوبه وخطاياها، لكنه متأكد أن الرسالة لن تصل. يكتب من موقع اليأس، كأنه يخاطب غياباً مطلقاً. هذه الرسالة رمز النقطاع الرابط

المومي، إذ تتحول الكتابة نفسها إلى فعل من العدم إلى العدم، حيث ال متل ق حقيقي، ما يعكس النهيار الوجودي. يقول البن: "أكتب إليك يا أمي وأنا أعرف أن الرسالة ستضيع. لكنني أكتب كأني أخطب غيابك، كأني أعترف لظلك"5. يعكس هذا المقطع رمزية ألم بجذر أول للهوية، والنقطاع عنها يعني النكسار الكلّي. الكتابة نفسها تتحول إلى مخاطبة للعدم، ما يكشف انهيار ال اربط المومي بوصفه رمزاً لانقطاع الهوية الفردية والجماعية. يرى الناقد سعيد يقطين أن "غياب ألم في النصوص السردية المعاصرة كثيراً ما يرمز إلى فقدان الأصل وانقطاع الساللة، وهو جزء من تفكك الهوية في زمن الأزمات"6.

(4) موت البوسطجي: ساعي البريد الذي يحمل الرسائل ينهار هو الآخر. الطرق مدمّرة، العناوين غير موجودة، والرسائل تائهة بال مستقبل. ساعي البريد هنا رمز للعالم العربي بعد الحروب، ال رسائل تصل، وال ذوات تتواصل، بل كلها عالقة في العدم. وهو التجسيد الأشد وضوحاً لفكرة النهيار الوجودي الجماعي: "الطرق كلها مقطوعة، العناوين ميتة، والرسائل تائهة. لم أعد أعرف لمن أسلم هذه الأوراق، كأني أحمل صرخات ال مستقبل لها"7.

ساعي البريد، رمز التواصل، ينهار هو الآخر، ليجسد البنية الرمزية الأكبر للرواية: انقطاع الرسائل يعني انقطاع الذوات عن بعضها البعض. وهو رمز للخراب العربي بعد الحروب، حيث ال تصل الرسائل وال تتواصل الذوات. يتحوّل البوسطجي في بريد الليل إلى استعارة كبرى عن موت المعنى، إذ لم يعد ثمة أفق للتواصل في عالم عربي محطم.

يتّضح ممّا سبق أنّ شخصيات "بريد الليل" كلها أصوات مهدّمة: السجين = ضحية السلطة/ المرأة في المنفى = ضحية الغربة/ البن التائه = ضحية العائلة/ ساعي البريد = ضحية الخراب العام. كلهم يكتبون من العدم، ويعيشون في العدم، ليشّ كلوا مرآة لالنكسار الوجودي العربي بعد الن ازعات والحروب.

ثانياً: الرواية كصرخة نسوية:

تبدى جماليات الغضب في رواية بريد الليل لهدى بركات، كصرخة نسوية حادة، إذ تتحول رسائل النساء إلى فضاء احتجاجي يفضح التهميش والخذالن. فالمرأة المهاجرة تقول: "أعيش غريبة حتى عن نفسي، ال بيت لي وال جسد آمن ألبأ إليه"⁹، في صياغة تحمل إدانة مزدوجة للمنفى وللمجتمع الذكوري الذي ألقى بها في العدم.

تقدم الرواية أيضاً خطاباً نسوياً متوتراً، إذ تكتب الم أرة من موقع القهر والغضب، مقاومةً صور التشيء والتهميش. يظهر ذلك في صوت الأنثى الذي يواجه النكسار الجسدي والرمزي معاً: "كنتُ ام أرةً بال ظل، تُرى وال تُسمع"¹⁰. هذا الصوت ليس مجرد بوح شخصي، بل صرخة ضد النظام الأبوي والسلطة الاجتماعية التي تصدر الكينونة الأنثوية.

ويتجسد هذا الغضب في عجز البوسطجي عن إيصال الرسائل، ليبقى صوت النساء معلقاً في الأدراج، كما لو أن وجودهن موقوف على إذن الرجل "تظل الرسائل تنتظر من يحملها، كأنها نساء ينتظرن من يعترف بهن"¹¹. هكذا يتحول الغضب النسوي في الرواية إلى صوت مكتوم يفضح انهيار التواصل في عالم ذكوري وحربي ال يمنح النساء حق التعبير. ومن خلال هذا التوظيف، ترسم بركات جماليات فنية تجعل من الغضب مقاومة أدبية للهيمنة، ووسيلة لإعادة الاعتبار لصوت الم أرة المهمّش.

ترى بعض الدراسات أن هدى بركات تستثمر ما تسميه إلين شوالتر بـ "النقد النسوي الثقافي"¹²، حيث تتحول الرواية إلى وسيلة لتفكيك البنى الذكورية. كما يذهب الناقد عبد اهلل إبراهيم إلى أن النصوص النسوية العربية تعيد تشكيل خطاب الغضب بوصفه طاقة جمالية، تجعل من المعاناة أفقاً للقول.

ثالثاً: مرايا السلطة: سرديات القمع والرقابة:

كثيراً ما تنبش الرواية العربية في ملفات الاستبداد، حيث تتحول الكتابة إلى مقاومة ناعمة. و تكشف هدى بركات في بريد الليل عن حضور مرايا السلطة عبر سرديات القمع والرقابة التي تخترق حياة الأفراد وتعيد تشكيل ذواتهم. فالشخصيات تكتب رسائلها من موقع الخوف والتهديد.

تستهل رواية بريد الليل مشروعها السردى عبر استدعاء أصوات ضائعة في فضاء المنفى الروحي، حيث يتحول المكان إلى مساحة قسرية للتيه والنكسار. كل رسالة تُكتب من موقع العزلة والنقطاع، وتكشف عن وعي مأزوم بالذات التي تفتقد جذورها. فالشخصيات تعيش تمرقاً بين ماٍ ضٍ مُثقل وحاضر غريب، في استبطان ألزمات الذات العربية بعد الحروب والنزاعات: "كتبتُ إليك من أقصى الليل، وأنا أعلم أنني لم أعد أملك غير هذا الصوت المبحوح"13.

في نص بركات، السلطة ليست مجرد جهاز سياسي، بل هي بنية رمزية تتسرب إلى تفاصيل اليومي، مكرسة الخوف والصمت. شخصيات بريد الليل محاصرة برقابةٍ دائمة، حيث تتحول الرسالة ذاتها إلى وثيقة مهددة بالنكشاف: "كتبتُ وفي قلبي خوف أن يفتح أحدهم هذا الظرف قبل أن يصلك"14.

ويقول أحدهم: "أكتب وأنا على يقين أن الرسالة قد تفتح قبل أن تصل، وأن أحدهم سيق أرني كما لو كنت جريمة"15، وهو اعتراف يعرّي رقابة السلطة حتى على الفضاء الشخصي. وتظهر هذه الما ريا في استبطان الفرد للقمع، حيث تعترف شخصية أخرى: "أخاف أن يفتشوا حقيقتي الصغيرة، أن يعثروا على أوراقى ويجردوني حتى من صوتى"16. بهذا يتجسد القمع ال فقط في مؤسسات الدولة، بل أيضاً في الرقابة الداخلية التي يستبطنها الأفراد، ليصبحوا سجناء خوف دائم. وتبلغ هذه الرقابة ذروتها في صورة البوسطجي، الذي يمثّل سلطة وسيطة ت ارقب وتجب الرسائل، "تظل الرسائل عندي، كأنني رقيب عليها، كأنني أملك مصائرهم"17.

هكذا ترسم الرواية مشهداً جمالياً للسلطة بوصفها شبكة خفية تلتحق ألف ارد في تفاصيلهم، وتحوّل حياتهم إلى نصوص معلقة بين الم ارقبة والصمت.

يشير ميشيل فوكو إلى أن السلطة تنتج ذاتها عبر المراقبة والتأديب¹⁸، وهذا ما تجسده الرواية في فضاء سردي يكشف كيف تتشكل الذوات تحت وطأة الخوف. ويؤكد صالح فضل أن السرد العربي الحديث استثمر مفهوم الرقابة الداخلية بوصفها أداة للكشف عن أثر السلطة في تشكيل النصوص¹⁹.

رابعاً: أصوات المهمشين في بريد الليل

تقوم بريد الليل على تحويل الهامش إلى مركز، حيث تتكلم الشخصيات التي عادةً ما يتم إسكاتها أو تجاهلها. هؤلاء المهمشون-مهاجرون، غرباء، عمال بال هوية، يكتبون رسائلهم كأنها اعترافات أخيرة قبل الذوبان في العدم. تقول المرأة المهاجرة: "ال أحد ينتظرنى، وال مكان أعود إليه، كأني مجرد ظل في بالذ ال تراني"²⁰. وهو تصرّح يكشف عن مأساة من طردهم المجتمع وتركهم على هامشه.

إن هذا الهامش الناطق يفضح هشاشة البنى الاجتماعية والسياسية التي تفرز هؤلاء، حيث يعترف الشاب الهارب: "أعرف أنني غير مرئي، كأني أعيش في الهوامش، ال يلتفت إليّ أحد"²¹. هنا، يتحول السرد إلى مساحة اعترافية تمنح "المرئيين" القدرة على الظهور ولو عبر خطاب ال يصل.

نلّس في الرواية حضور مكثف للمهمشين: اللاجئين، الفقراء، النساء المعنفات، والأصوات المنفية. هذه الذوات المهمشة هي التي تكتب وتروي، لتحتل موقعاً سردياً كان محجوباً. تقول إحدى الشخصيات: "أنا ابن الحروب الصغيرة التي لم يذكرها أحد في كتب التاريخ"²².

ويعمّق حضور البوسطجي هذا البعد الهامشي، إذ يجسد سلطة وسيطة تحتكر أصوات المهمشين: "هذه رسائل منسية، أناس منسيين، لو لم أحتفظ بها لما عرف أحد بوجودهم"²³، فالرسائل، بما هي وثائق معطلة، تصبح رمزاً لصوت الهامش الذي ال يصل إلى المركز، وبقائها في الدراج يعكس استمرار القطيعة بين من يكتب ومن يفترض أن يتلقى.

من هنا، ال يقتصر دور الهوامش في الرواية على تسجيل الغياب، بل يتعداه إلى إعادة صياغة المعنى، فالكّابة في حد ذاتها مقاومة للصمت والإقصاء، والرسائل المتروكة تتحول إلى أرشيف بديل يحفظ ذاكرة الذوات المهمشة. إن الهامش، في هذه الصياغة، ال يعود مجرد موقع اجتماعي سفلي، بل يصبح مركزاً جمالياً يفرض حضوره عبر اللغة، ويمثل محاولة لرسم خريطة جديدة للوجود.

يتقاطع هذا الحضور مع أطر وحات غاياتري سيففاك حول "إمكانية كالم التابع"24، حيث يصبح السرد وسيلة لإعادة الاعتبار للصوت الغائب. وبهذا تكون الرواية العربية الحديثة منحت الهامش موقعاً مركزياً عبر تقنيات السرد المتشظي.

خامساً: الرواية كتقنية للمعنى:

فرضت تحوّلات المجتمع العربي على الرواية العربية أن تُجدد أدواتها التعبيرية. فقد لجأ الكثير من الروائيين إلى تقنيات مثل تعدد الأصوات، وكسر الخطية الزمنية، والمزج بين الواقعي والعجائبي، للتعبير عن واقع مكسور.

تتفرد بريد الليل بقدرتها على إعادة ابتكار الشكل الروائي، حيث تتخذ الرسائل المقطوعة والمتناثرة شكلاً سردياً بديلاً عن البناء التقليدي. هذا الخيار الجمالي يضع القارئ أمام نصٍّ موزع، تتجاور فيه الأصوات دون رابط خارجي صلب. إن تفكك البنية ال يعني غياب المعنى، بل يتيح تعدده، وفق ما ذهب إليه روالن بارت حين اعتبر النص فضاءً لكّابة الق اراء.

تجلى براعة هدى بركات في بريد الليل في ابتكار الشكل السردى باعتباره تقنية إنتاج المعنى، إذ تعتمد بنية الرسائل المقطوعة التي ال تصل إلى أصحابها، فتتحول الكّابة نفسها إلى فعل مقاومة للنسيان. تقول إحدى الشخصيات: "أكتب كمن يرمي في البحر قارورة، ال أعرف إن كانت ستصل، وال إلى من"26. وهو اعتراف يفضح مأزق التواصل ويمنح الشكل دالته الوجودية.

هذا التشظي السردى ال يعكس فقط انكسار الذوات، بل يُنتج معنى جديداً قائماً على التبعثر: "كل رسالة تنفتح على أخرى، كأننا جميعاً نكتب إلى الفراغ نفسه"27.

كما أن اعتماد الرسائل المهمة يجعل النص أشبه بأرشف للغياب، وهو ما يتناغم مع ما يسميه جى ارر جنيت بـ"التناص البنيوي، حيث الشكل ذاته يصبح حاملاً للمعنى"28. بالتالي، فإن ابتكار الشكل عند بركات ليس تجريباً شكلياً فحسب، بل هو است ارتيجية لبناء المعنى في سياق مأزوم.

تُعيد الرواية بذلك تعريف السرد بوصفه شبكة من الأصوات المتقطعة، حيث يتحول غياب الرد إلى دالة على النقطاع الجذري بين البشر. حتى البوسطجي نفسه، الذي يحتفظ بالرسائل، يعي هذا البعد الشكلي: "هي رسائل بال أصحاب، وأنا آخر من يقرأها"29. بهذا يصبح الشكل في بر يد الليل ليس مجرد وعاء للحكاية، بل تقنية جمالية تنتج معنى الانكسار والغياب.

خاتمة:

الرواية العربية ليست مجرد انعكاس للواقع، بل هي مشاركة فعالة في تشكيل وعي المجتمع العربي بذاته. لقد استطاع الروائي العربي أن يحوّل الكتابة إلى مقاومة، والسرد إلى فعل معرفي وجمالي، يستنطق الواقع ويكشف تناقضاته. من هنا تأتي أهمية القراءة النقدية للرواية ال بوصفها جنساً أدبياً فحسب، بل باعتبارها وثيقة ثقافية واجتماعية تؤرخ للتحوّل، وتعيد صياغة الواقع بمنطق الفن ال الوثيقة.

تكشف بر يد الليل عن مشروع روائي يتجاوز الحكى الفردي إلى مساءلة قضايا كبرى: المنفى الروحي، الغضب النسوي، الرقابة والسلطة، ابتكار الشكل، وصوت المهمشين. إنها نص يكتب الذات في انكساراتها، ويبتكر لغة للغياب والبحث، مما يجعلها واحدة من أهم التجارب السردية العربية المعاصرة.

- 1- هدى بركات: بريد الليل، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2018، ص.27.
- 2- يمنى العيد: الرواية العربية والمتخيل وبنيتها الفنية، دار الفارابي، ط1، بيروت، 1201، ص.145.
- 3- هدى بركات: بريد الليل، ص.64.
- 4- عبد هلال إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، دار الفارس للنشر، ط1، بيروت، 2011، ص.29.
- 5- هدى بركات: بريد الليل، ص.98.
- 6- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، 2005، ص.233.
- 7- هدى بركات: بريد الليل، ص.152.
- 9- هدى بركات: بريد الليل، 2018، ص.54.
- 10- المرجع نفسه، ص.63.
- 11- المرجع نفسه، ص.89.
- 12- إلين شوالتز: الكتابة النسوية، ص.88.
- 13- المرجع نفسه، ص.17.
- 14- المرجع نفسه، ص.39.
- 15- المرجع نفسه، ص.37.
- 16- المرجع نفسه، ص.61.
- 17- المرجع نفسه، ص.92.
- 18- ميشيل فوكو: المراقبة والمعاقبة، تز: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990، ص.63-64-65-بتصرف.
- 19- صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، المدى، ط1، دمشق، 2003، ص.176-بتصرف.
- 20- هدى بركات: بريد الليل، ص.52.
- 21- المرجع نفسه، ص.67.
- 22- المرجع نفسه، ص.81.

23- المرجع نفسه، ص. 94.

24- غاياتري سيفناك: هل يستطيع التابع أن يتكلم؟، تر: خالد حافظي، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط1، م.ع.س، 2020
ص. 45.

26- هدى بركات: بريد الليل، ص. 15.

27- المرجع نفسه، ص. 44.

28- جبرار جنيت: مدخل لجامع النص، ص. 104.

29- هدى بركات: بريد الليل، ص. 95.